٨

بقية مصر وبلاد الشام

فى هذا الفصل من رحلة ابن بطوطة نتحدث عن ثغر عيذاب وتجربة ابن بطوطة عنده وعن بعض مشاهداته فى بلاد النوبة ثم فى بلاد الشام .

وقد ذكرنا فى الفصل السابق كلامه عن « قوص » ذلك المركز العلمى الكبير فى العصور الوسطى فى صعيد مصر الأعلى ، ومن قوص انتقل إلى الأقصر ، وهو لا يشير إلى آثارها أو إلى معبد الكرنك ، ولكنه يشير إلى قبر الشيخ الصالح العابد أبى الحجّاج الأقصرى ، وهذا القبر ما زال قائماً إلى اليوم فى قلب معبد الكرنك ، وهو عبارة عن مسجد ريفى جميل مطلىٌ بالجِصّ ، وهو يروع النفس وسط المعبد الفرعونى المشهور .

ومنها انتقل إلى أرمنت ، وهنا نقرأ هذه العبارة الطريفة : « وهى صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل ، أضافنى قاضيها وأُنسيت اسمه ، وفى إسنا أيضاً أضافه قاضيها ، ولكنه لحسن حظ القاضى لم ينسَ اسمه ، وهو شهاب الدين بن مسكين ، ولعلَّه ذكره ؛ لأنه لم يكتفِ باستضافته ، بل أكرمه «وكتب إلى نوابه بإكرامى» (ص ٤٩) .

ومن مدينة إسنا - وكانت سوقاً تجارية عظيمة - انتقل إلى أُدفو ثم عبر النيل إلى الضفة الشرقية ونزل فى بلدة العطوانى - وهى بداية طريق العلاَّقى. وهناك اكترى ابن بطوطة وأصحابه الجمال لكى يقطعوا ذلك الطريق الصحراوى الطويل إلى « عيذاب » وهذا الطريق يمر فى منازل

قبيلة عربية تُعرف بدغيم ، وليس فيه إلا آبار ماء قليلة ، ولهذا كان الحُجَّاج يجهدون فى حمل الماء ، ولكنه كان آمناً جدًّا ، شهد بذلك الإدريسى أيضاً ، فكان يندر أن يُسرق فيه شىء .

عيـــذاب وأرض البجاة

وفُرضة عيذاب لم تكن لها أهمية إلا أنها قُبالة جدَّة ، وفيها آبار ذات ماء مالح زعَّاق ، ولكن الناس كانوا يتحملون كل المصاعب فى سبيل الفوز بالحج إلى بيت الله الحرام .. وكانت عيذاب فى أرض البجاة ، وقد عَظُمَ أمرها فى أثناء القرنين الخامس والسادس الهجريين عندما كان الصليبيون يسيطرون على أرض فلسطين ، ويقطعون طريق الحج التقليدى خلال سيناء ثم العقبة ، وهناك كان يلتقى رَكْبُ الحاجِّ المصرىّ ورَكْبُ الحاجِّ الشامىّ .

أما فى أثناء الفترة التى نتحدث عنها فقد انقطع هذا الطريق وأصبح حجاج مصر والمغرب يسيرون فى الطريق الذى سار فيه ابن بطوطة صاعدين مع النيل إلى قوص أو إسنا أو أدفو ، ويعبرون النيل ليأخذوا طريق وادى العلاَّقى إلى عيذاب فى بلاد البجاة.

والبجاة الذين كانت عيذاب فى بلادهم كانوا قَبِيلاً قريباً من أهل النوبة، ولكنهم لم يكونوا نوبيين ، وهم يكادون أن يكونوا جنساً منقطعاً مفرداً بذاته ، مثلهم فى ذلك مثل النوبيين، ويقال إنهم من أهل اليمن ، وقد سكنوا ساحل البحر الأحمر من قُبالة الأقصر إلى ميناء سواكن ، وهم سمر الألوان يشتهرون بالأمانة والشجاعة ويجولون فى هذه النواحى ، وقد عُرفوا بالمهارة التجارية، ومن بقاياهم اليوم البشارية المعروفون فى جنوبىّ مصر ووادى حلفا . وقد ضعف أمر البجاة بعد هجرة عرب رفاعة من صعيد مصر إلى النوبة ، فقد ساروا فى أرض البجاة واختلطوا بهم ، فأضاعوا وحدتهم الاجتماعية القبائلية .

وإلى هؤلاء البجاة يرجع الفضل فيما اشتهر عن طريق عيذاب من

الأمن ؛ إذ كانت فيهم أمانة وصلابة اضطرت حكام مصر إلى أن يشركوهم فى حكم عيذاب ، فكان فيها والٍ لسلطان مصر ورئيس من رؤساء البجاة ، وكانا يتقاسمان إيراد الميناء .

سفن العبور إلى جدة

وكانت السفن تُصنع هناك ، ولكنها كانت سفناً ضعيفة سيئة الصنع لايدقون فيها مسماراً ، ظنًّا منهم أن قاع البحر الأحمر فيه حجر المغناطيس ، فإذا سارت سفينة بمسامير اجتذبها المغناطيس فتفكَّك المركب وغرق ، ولهذا كانوا يربطون ألواح الخشب بعضها إلى بعض بحبال القنب ، ثم يصبُّون عليها زيت الخروع حتى لا ينفذ فيها الماء ، وكانت السفينة - لهذا - لا تحتمل إلا رحلة واحدة ، فإما غرقت أو وصلت ثم تفككت ، وكان الله فى عون من كُتب له السفر بهذه السفن !

وقد أعفت الظروف ابن بطوطة من ذلك الخطر ، فعندما وصل إلى عيذاب وجد أن خلافاً نشب بين سلطان البجاة - كما يقول - والسلطة المصرية ، ووقعت الحرب بين الجانبين، ووقف الطريق ، بل ذهب غضب سلطان البجاة إلى درجة جعلته يحرق السفن المعدَّة للحُجَّاج « فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد ، وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر » (ص ٥٠).

ابن بطوطة لا يحج عن طريق عيذاب ويعود أدراجه

وهكذا عاد ابن بطوطة أدراجه ، فصعد مع النيل ، ووصل إلى مدينة بلبيس فى منتصف شعبان ٧٢٦ هـ / يوليو ١٣٢٦ م ، واتجه إلى الشام ، قال : « ثم وصلت إلى الصالحية ، ومنها دخلنا الرمال ، ونزلنا منازلها مثل السوَّادة والورَّادة والمُطَيْلِب والعريش والخَرَّوبة ، وبكل منها فندق ، وهم يسمُّونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابِّهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته » (ص٥٠).

الحدود بين مصر والشام

وبعد قليل يجتاز نقطة الحدود بين مصر والشام عند قَطْيَا « وفيها تؤخذ الزكاة من التجار وتُفتَّش أمتعتهم ، ويُبحث عما لديهم أشدَّ البحث ، وفيها الدواوين والعمال والكتَّاب والشهود ، ومجباها كل يوم ألف دينار من

الذهب ، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة [1] من مصر ، أو أحد من مصر إلا ببراءة من الشام » .

ومع أن مصر والشام كانتا سلطنة واحدة ، فإن أخذ الضرائب على الحدود كان أمراً مهماً بالنسبة لإيرادات السلطنة فى مصر ونيابة السلطنة فى الشام . ويبدو كذلك أنهم كانوا يخافون الجواسيس .

غـــزة

ودخل ابن بطوطة الشام عند غزة ، وهو يُطنب فى مدحها ويقول إن كبراء المدينة - إذ ذاك- كانوا بنى سالم ، ومنهم شمس الدين بن سالم قاضى القدس.

ومنها انتقل إلى « الخليل » وأطال الحديث عن المقام الخليلى - كتب الله له السلامة من مكايد اليهود - وَوَصْفُهُ يدلُّ على عناية المسلمين بالمشهد الخليلى واجتهادهم فى أن يكون فى أجمل حال ، وفيه عدد من قبور الأنبياء - عليهم السلام - .

وهنا نجد دليلاً على عناية ابن بطوطة بقراءة الكتابات والنقوش ، فقد أتانا بالنص الكامل لشاهد قبر السيدة فاطمة بنت الحسين بن على - رضوان الله عليهما - ، وهو يقوم داخل مغارة .

القدس الشريف

ثم وصل إلى القدس الشريف ووصفه وصفاً مفصَّلاً ، وذَكَرَ مزارات البلد المشرَّف كلها ، ويذكر نفراً ممن لقى من فُضَلاء القدس ، وكلهم من الفقهاء ، ويهمنا « منهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن ابن مصطفى من أهل أَرْزَن الروم ، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى ، صحِبتُه ولبستُ منه خِرْقَةَ التصوُّف (ص٥٥).. أى أن صاحبنا ابن بطوطة أصبح مُريداً صوفيًّا على الطريقة الرفاعية ، ولكننا لم نلاحظ قَطُّ أىَّ أثر فى سلوكه لانتظامه فى الطريقة الرفاعية .

ابن بطوطة يلبس خرقة التصوف

(١) أى : بوثيقة مرور تدل على أنه دفع الضرائب والمكوس المفروضة على الانتقال بين مصر والشام ، وكانت مبالغ كبيرة ، ومع ذلك كانت تُسمَّى زكاة !.

ونلاحظ أن ابن بطوطة بعد أن يفرغ من المزارات يجول فى البلاد على هواه ، شأن السائح فى أيامنا هذه ؛ فهو يذهب إلى عسقلان مع أنها كانت - إذ ذاك - خراباً ، ويصف آثارها ومبانيها ، ويزور الرملة ونابلس ، وهى عنده أكثر بلاد الشام زيتوناً ، ومنها يُحمل الزيت إلى مصر ودمشق ، وبها تُصنع حلوى الخروب ، وهى نوع من الربِّ ، أى : المربَّى .

ثم يزور عَجْلون ، وفى الطريق إلى اللاذقية يمر بالغَوْر ، ويزور قبر أبى عبيدة بن الجرَّاح « أمين هذه الأرض » كما يقول ، والأصح أنه أمين هذه الأمة ، يقول : « زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل ، وبتنا هناك ليلة » (ص ٥٦).

عكا وصور

ثم يزور عكا ويقول إنها فى أيامه خراب ، ويقول إنها كانت قاعدة بلاد الإفرنج بالشام ومرسى سفنهم . وعندما يصل إلى صور يقول إن أكثر أهلها أرفاض، أى: رافضة[1]، ويحكى حكاية لا بأس من روايتها : « ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ ، فبدأ بغسل رجليه ، ثم غسل وجهه، ولم يتمضمض ولا استنشق، ثم مسح بعض رأسه ، فأخذت عليه فى فعله ؛ فقال لى: إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس ! ».

ويقف ابن بطوطة طويلاً عند أسوار صور ويتغنى بحصانتها ، ثم يمر بصيدا وطَبَريَّة ويقول إنها خراب، وفيها قبور شعيب وبنته زوج موسى الكليم وقبر سليمان عليه السلام ، وقبر يهوذا وقبر روبيل ، ولم يفته أن يزور الجُبَّ الذى أُلقى فيه يوسف عليه السلام قريباً من طبريَّة ، « وهو فى صحن مسجد صغير، وعليه زاوية، والجُبُّ كبير عميق ، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر، وأخبرنا قَيِّمُهُ أن الماء ينبع منه أيضاً » (ص ٥٨) .

(١) فى مصطلح أهل المغرب : الرافضة هم الشيعة بصورة عامة .

بيروت وأسطورة أبى يعقوب المنصور

ويمر ببيروت ويقول إنها صغيرة حسنة الأسواق ، ومنها خرج لزيارة قبر أبى يعقوب يوسف الذى يزعمون أنه من ملوك المغرب ، وهو بموضع يُعرف بكرك نوح من بقاع العزيز ، وعليه زاوية يُطْعَمُ بها الصادر والوارد، ويقال إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف وقَبْلَهُ السلطان نور الدين ، وكانوا من الصالحين .

وأبو يعقوب المذكور هنا هو أبو يوسف يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحِّدين وصاحب النصر العظيم على ألفونسو الثامن ملك قشتالة فى موقعة الأرك سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م ، وقد توفى أبو يوسف يعقوب بعد هذا النصر بأربع سنوات، أى : فى سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م وخلفه ابنه محمد الناصر ، ولكن نصر « الأرك » رفع مقام أبى يوسف يعقوب إلى مقام أبطال الأساطير وأولياء الله ، فقيل إنه لم يمت ، بل اعتزل العرش وتركه لابنه محمد الناصر ، وخرج إلى الحجاز ، وهناك حَجَّ وجَاوَرَ ، ثم ذهب إلى الشام وجَاوَرَ فى الأراضى المقدسة ، واتسعت أسطورته حتى أصبح كأنه الخضر عليه السلام. وقد كان أبو يوسف يعقوب معاصراً لصلاح الدين ، فقد حكم من ١١٨٤ إلى ١١٩٩م ، وأرسل إليه صلاح الدين سفارة على رأسها أسامة بن منقذ ؛ يدعوه إلى التعاون معه على حرب الصليبيين فى الشرق والغرب ، ولكن الاتفاق لم يتمّ .

* * *